

طرابلس الشام

في سنة ١١١٢ هجرية اي منذ مائتين وعشرين سنة تقريباً زار
 الشيخ عبد الغني النابلسي مدينة طرابلس
 والشيخ عبد الغني هذا مفخرة من مفاخر دمشق الشام وواسطة
 المقعد الذي ينتظم علماءها الاعلام :
 كان رحمه الله عالماً فقيهاً أصولياً صوفياً اديباً شاعراً وهو مشهور
 بالولاية وله قدم وذوق في علم الاحوال . وقد ألف في معظم فنون زمانه حتى
 فن الفلاحة والزراعة . فلا غرو اذا احتفل به اهل طرابلس الاحتفال
 اللائق بعلمه وفضله وشهرته التي ملأت الخافقين
 وكان سبب زيارته طرابلس دعوة من حاكمها اذ ذاك ارسلان محمد
 باشا « قصداً للنفع العام »

تولى ارسلان محمد باشا الحكم في طرابلس بعد سقوط اسرة آل
 سيف الشهيرة في تاريخ سوريا والتي حكمت في طرابلس وعكار وعرقه وما
 يلي ذلك من النواحي حقبةً من الزمان ثم زال حكمها سنة ١٠٦٨ هجرية
 ولما وصل الشيخ النابلسي الى طرابلس الشام ذهب تَوّاً الى « دار
 السعادة » وهو اسم لمنزل الامير ارسلان باشا المشار اليه . لكن الامير
 كان قد اعدّ لتزول الشيخ داراً اخرى وهي دار حسين جلبي آغا مينا
 طرابلس . والذي يسمع وصف هذه الدار يخال نفسه في عالم الف ليلة وليلة
 وانه يقرأ فصلاً من فصولها : « فقد كانت تلك الدار . كجنة النعيم دار

القرار . تنتعش فيها الارواح . وتبتهج بها الاشباح . وهي محتوية على بيوت فاخرة . واما كن كثيرة عامرة . ذات مياه رائقة واحواض دافقة . وفي ساحة هذه الدار بركة ماء طولها اربعة عشر ذراعاً . وعرضها سبعة اذرع وباعاً . وامامها مقعدان . لطيفان . وعليهما عرائش العنب . وبينهما فسقية صغيرة من الرخام الابيض يتدفق ماؤها كأنها كأس بلور زانه الحبيب . وبأرجاء هذه الدار بسايتين واشجار . ورياحين وازهار . ما بين ياسمين وسيسبان . واشجار نارنج وفاغية وريحان ... » وكنت منذ ايام سمعت مدير ميناء طرابلس يساوم في اجرة دار يريد سكنها في الميناء فلم يشأ ان يدفع سوى ثلاثة ريالاً في الشهر . اما آغا الميناء منذ مائتين وعشرين سنة فقد كانت له — عدا الدار التي مرّ وصفها — دار اخرى في الميناء لا تقل شيئاً عن تلك الدار : فقد كانت « قصراً رفيعاً . ومكاناً مشرفاً بديعاً . وهو مطل على البحر المتلاطم بالامواج . وشبيه في سموه بهاتيك الابراج . وجهاته مطلقة . وجوانبه على هاتيك البسايتين والمرج الاخضر مشرقة »

وقوله « هاتيك الابراج » إشارة الى ابراج او مساح سبعة مبنية على شاطئ البحر امام طرابلس الشام . كانت تشحن بالسلح والذخائر والمقاتلة لحماية الثغر من عدو مهاجم او قرصان متلصص . وبين البرج والبرج الف خطوة أو أكثر أو أقل . وهذه الابراج من بناء الصليبيين . لكن المسلمين لما استولوا عليها كانوا يرممونها ويزيدون فيها ما يكسبها قوة ومناعة . وفي بعض هذه الابراج محراب للصلاة ، ومن ثمة ذهب بعضهم الى ان هذه الابراج مما شيده المسلمون . لكن التحقيق انها من

آثار الصليبيين . ولم يبقَ منها اليوم سوى برجين مائتين في الساحة التي اتخذت الآن محطة كبرى للسكة الحديدية التي تصل طرابلس بحمص وتم بعد بضعة اشهر . وعمّا قريب يعنى اثر البرجين المذكورين من لوح الوجود كما عني اثر سائر الابراج التي اشتراها الاهلون من الحكومة وشادوا عليها وبانقاضها مخازن وبيوتاً

لبث الشيخ النابلسي في طرابلس زهاء خمسة عشر يوماً . وقد اجتمع بفضلائها وعلماؤها . ونجول في أرياضها ومتنزهاتها . وأحصى جوامعها وحماماتها . ولما ركب زورقاً للنزهة في البحر ورأى أشكال القوارب . ومختلف هيئاتها سأل عن كل واحد منها وسرد أسماءها . فكانت عشرين نوعاً وكان اذا ذكر حماماً قال ان مسلخه كبير أو صغير وفيه حوض من رخام أو ليس فيه . وذهب بعض الفضلاء الى انه يريد بكلمة المسلخ المكان الذي فيه يسالخ المغتسلون ثيابهم اي ينزعونها . وقد اعاد هذه الكلمة مراراً . فكأنها كانت شائعة في زمانه . ولا نعلم ان كانت تستعمل اليوم في دمشق بهذا المعنى أولاً ؟

وكانت تجري بين الشيخ النابلسي وبين علماء طرابلس وفقهاائها مذاكرات ومباحثات ومطارحات . وكان معظمها او كلها يدور حول غرائب الابحاث ونوادر المسائل النحوية والفقهية كمسائل الوقف والطلاق وغير ذلك . فكان كل منهم يذكر قولاً رآه في بعض الكتب لبعض الفقهاء . ويطلب رأي النابلسي في المسألة أو هو يطلب رأيهم فيما اشكل عليهم أمره ومما يستدعي الملاحظة ان علماء طرابلس أو علماء ذلك العصر كانوا

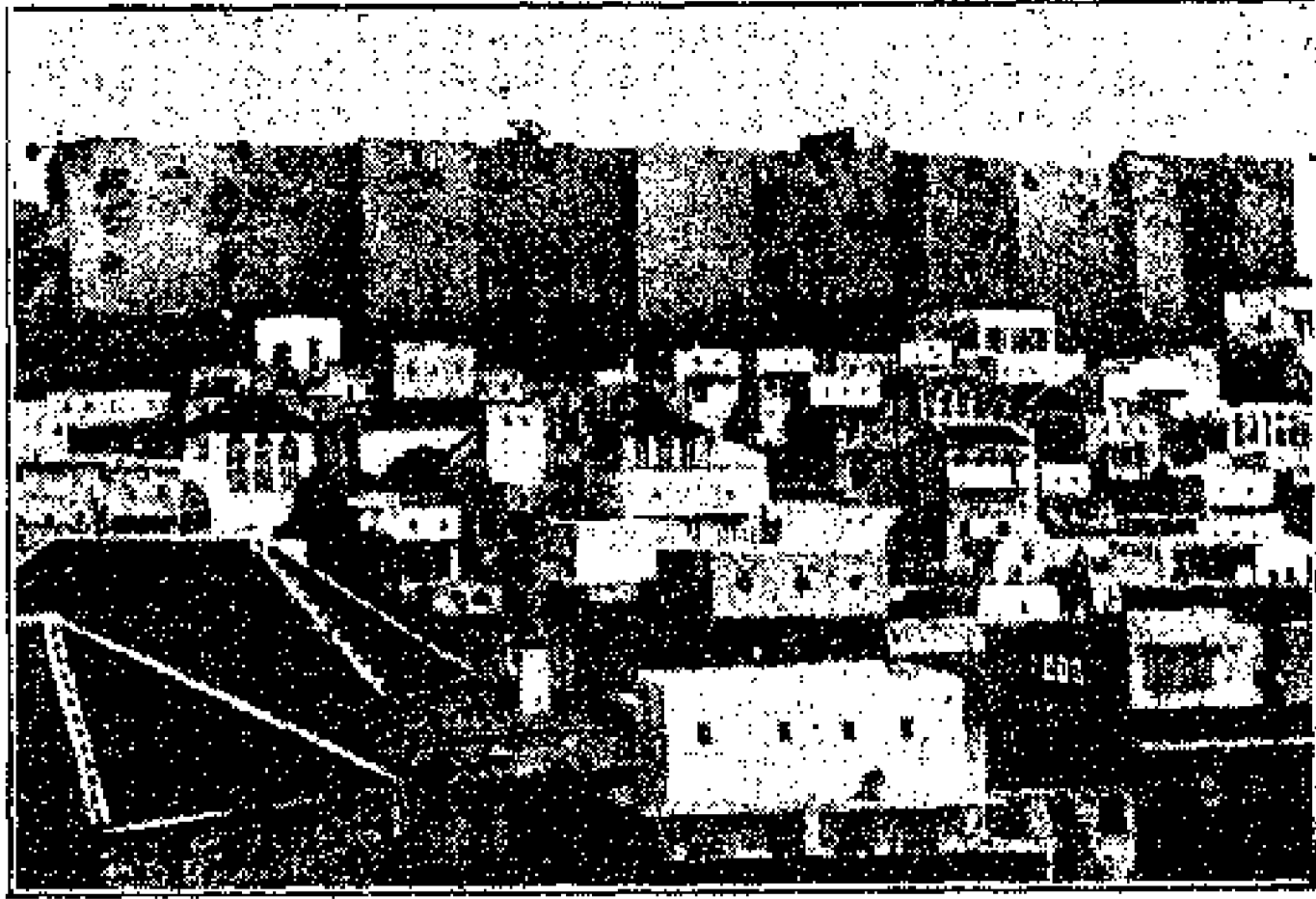
مفتونين بحب كتب العلم ، يتنافسون باقتنائها ويتباهون بنوادرها . فكان الشيخ النابلسي كلما زار فاضلاً في داره عرض عليه ما عنده من نفائس الكتب ونوادر الاسفار العلمية والادبية يأخذ كل منهم في سرد ما يعلمه من هذا القبيل

ومما يلاحظ أيضاً ان مدة الجمعة عشر يوماً التي قضاها النابلسي في طرابلس - وكانت كلها مذاكرات ومباحثات - لم يجر فيها ذكر لمدارس التعليم - فلم يذكر تلميذ ولا مدرسة . ولا للعائلة - فلم تذكر امرأة ولا تربية ولا بيت . ولا للصناعة والتجارة - فلم تذكر حرفة ولا بضاعة ولا حانوت . ولا للعادات والتقاليد - فلم يذكر شيء من امور الافراح والمآتم والحفلات الاخرى حتى كأن طرابلس في ذلك العصر ليس فيها تلميذ ولا امرأة ولا صانع ولا تاجر ولا شيء من مميزات كل هيئة اجتماعية أو ان الكلام في هذه الاشياء ليس مما يُهتم به أو هو مما لا يحسن ان يدور الحديث بشأنه بين رجال الطبقة العالية

وأغرب من جميع ما ذكر أنه لم يجر حديث بينهم عن شؤون السياسة واخبار الحكومة واحوال الدولة ، فلم تذكر اسلامبول ولا اسم السلطان ولا محاربة ولا معاهدة ولا وزارة ولا شيء من هذا القبيل . مع أن الطبقة التي يجالسها الزائر الكريم من اعلى طبقات طرابلس في العلم والوجاهة والنفوذ والاتصال بالمقامات العالية خارج طرابلس . فهم الحكام الاداريون . والقضاة والمفتون

فما اكبر الفرق بين زمننا هذا الذي يذكر فيه اسم الحكومة وشؤونها

الوفاء من المرات كل يوم — وذلك الزمن الذي لم اسمعهم ذكره فيه شيئاً
من هذا القليل مدة خمسة عشر يوماً . فسبحان مغير الاطوار . ومقاب
الليل والنهار
المعربى



طرابلس وقلعتها

قال الاديب صاحب الامضاء يصف موقعاً بديعاً قامت في سفحه مدينة
طرابلس الشام موطن اسرته . وتظهر البلد للمشرف من هذا الموقع وقد انسحبت
وراءها البساتين وجرى من خلفها البحر يرتجف وليس بينها وبين السماء في نظر
العين إلا ان تخطاه :

يا صخرة حملتنا في ذرى جبل	اليه معطف قلبي حين ينمطف
إن شبهوا بك قلباً قاسياً فأنا	أراك قلباً بنا من حبه شغف
كم في لياليك انقاس يكاد بها	قلبي وقد ذكر الاحباب يُختطف
آنست من مسها في مهجتي سحرًا	مسّ اللحاظ تحيّننا وتنصرف

كأن أضواءها في القلب من طرب
مواقع الأمل المظنون تنكشف
تواقفت ومضت تهوي على عجل
كالطير صف^(١) ولكن لم يكذبف

أعليتنا الجو نستجلي محاسنه كأننا لسماء الله نزدلف
نلوح في «عين» «راء» نحوك أطأمت «كهزة» رفعتها فوقها «ألف»
نرى طرابلس تبدو كالجمامة في وكر لها أظهرة روضة أنف
والبحر يحكي ذراعاً للسماء به ترحل الأرض عنها فهو يرتجف
مناظر ما اختلفنا في محاسنها والحسن أنواعه فيهن يختلف
فيا طرابلس حيثك المنى بلدًا بي من هوى الحسن فيه فوق ما اصف
أحسن بين ضلوعي كلما خطرت ذكراك أن اليك القلب ينحرف
مصطفى صادق الرافعي

— — —

— يا فا —

قال البهاء زهير ملفزاً في مدينة يافا

بميشك خبرني عن اسم مدينة يكون رباعياً اذا ما كتبت
على انه حرفان حين تقوله ومعناه حرف واحد ان قلبته

(١) صف الطائر : بسط جناحيه في السماء

